ضيف الرسول !!

١

اشتد به الجوع ، ووجد أثره فى نفسه ضعفاً شديداً ، وخوراً أليما ، وهزالا مضنيا ، ونحولاً يكاد يذهب به إلى الموت والفناء ، يشكو إلى خالقه مايعانيه من ضيق وكرب فى هذه الحياة ، التى ازورّت عنه بجانبها من يوم أن خلقه الله ، وعرف للحياة طعماً ، وللوجود لذة ومتعة ..

ولم يجد غير الرسول الكريم صلوات الله وسلامه عليه ملجأ له وملاذا فأسرع إليه ، ليروى ظمأ نفسه ، ويشبع نهم روحه ، وليجد فى قربه نعيما يخفف من حدة الجوع ، ولذعة الألم ..

وكان عليه الصلاة والسلام بين صحابته كالقمر حوله الهالة ، يرويهم بفيضه العميم ، ويشملهم بعطفه البالغ ، وحنانه الكبير ، وهم بما يسمعون جد فرحين ، وبما ينالهم من الخيرات والبركات فى حال من السعادة لايقاس به حال ، كائناً ما كان ..

وكانت الشمس قد غربت ، والشفق الأحمر قد انتشر فى الأفق ، حينما أخذ الرجل طريقه إلى رسول الله ، فبدت له التلال والهضاب كأنما هى أشباح تقوم على جوانب الطريق هنا وهناك ، وكأنها تحرسه لئلا يعتدى عليه ظالم ، أو يخيف أهله معتد أثيم .. !!

وعجب لنفسه وقد أخذ يطوى الطريق إلى مجلس النبى ، كيف يسير على هذه الحال من القوة والجلد ، والصبر والاحتمال ، ومن أين له هذا النشاط ، وجسمه على مايعرف من الضعف والخور ، والوهن والانحلال ؟!

لكأنما هناك قوة روحية تسيره كما تحب ، وتدفعه كما تريد ، دون أن تكون له إرادة ما ، أو قوة يسيطر بها على نفسه وعواطفه ؛ فمضى لايلوى على شىء ، وهو يعتقد أنه سينال الخير كل الخير ؛ ويحصل على مايريد من أيسر سبيل ، وأقرب طريق .. !!

٢

— يارسول الله ، لقد أصابنى جهد شديد ، وقضيت أياماً طاوى البطن ، لا أجد ما أتبلغ به ، وأكاد أقضى من شدة الجوع ..

وقد وقعت هذه الكلمات من نفس الرسول الكريم موقعاً حاداً ، فهو بأمته رءوف رحيم ، وهو يتألم للبائس أكثر من ألمه ، ويحنو على الفقير والمسكين ، ويفكر فيما يصلح أحوال هؤلاء جميعاً أكثر مما يفكرون ..

وسره أن يبدو فى أسلوب الرجل الصبر ، وتظهر فى وجهه علائم الرضا بالقضاء ، مما يجزل له الأجر ، ويضاعف الثواب ، ويجعله فى عداد الصابرين فى البأساء والضراء ، وهذا فضل من الله عظيم ، ونعمة تستحق الشكر الدائب ..

تمضى وتمر ، وتخرج النفس من هذا الامتحان ظافرة منتصرة ، نقية طاهرة وقد اتصل مابينها و بين الله، حيث تذكره دائماً ، وتضرع إليه ، ولا تفكر فى غيره ، ولا تتجه إلى سواه .. !!

وتملكت الشفقة رسول الله ، و بدا على وجهه التأثر ، فما أشق على الإنسان من رؤية الجائع ، يرهقه الجوع ، وتضنيه المسغبة ، وتؤثر فى بدنه وجسمه .. !!

وسر الرجل أيما سرور ، حينما شاهد عطف الرسول عليه ، ومشاركته له عواطفه ومشاعره ، فأقبل عليه ، وكأنما يقبل على أب رحيم شفيق وقال :

— يا رسول الله ، إنى جائع فأطعمنى .

جائع فأطعمنى . . يا لله . . ترى هل فى البيت طعام ؟ !

وأرسل النبى صلوات الله وسلامه عليه ، إلى زوجاته قائلا :

— هَلْ عِنْدَ كُنَّ شَىْءٍ ؟

ولم يكن من عادة الرسول أن يكون بيته حافلاً بأنواع الطعام والشراب ، فهذا ما لايدخل فى دنياه ، ولا يرضاه لنفسه ، لأن الله لايرضاه له ، ولهذا كان ردهن كلهن واحداً ، لايفترق فى قليل ولا كثير ..

— والذى بعثك بالحق نبيا ما عندنا إلا الماء . .

وليس هذا الجواب بجديد عليه ، فهو يسمعه كثيراً ، ولا يكون رده عليه إلا الشكر الخالص ، والحمد والثناء ، فما ينبغى له أن يفكر فى أمور دنياه ، أو يشتغل بها ، وهى لا تستحق هذا ، ولا بعضه . . فاتجه إلى الرجل قائلاً فى اعتذار :

— مَاعِنْدَنَا مَانُطْعِمُكَ هَذِهِ اللَّيْلَةَ . .

ثم روّى قليلاً ، فهذا حل لا ينفع الرجل ، ولا يشبع بطنه ، فماذا يفعل ؟ ليس أمامه غير حل واحد ، فقال لأصحابه :

مَنْ يُضِيفُ هَذَا هَذِهِ اللَّيْلَةَ يَرْحَمُهُ اللهُ . .

يرحمه الله . . يرحمه الله . .

ودوّت هذه الكلمات فى أذنى أبى طلحة الأنصارى . . والله إنها الفرصة السانحة ، ينال بها الأجر العظيم ، والثواب الجزيل ، الذى تهفو إليه نفس المؤمن ، وتتطلع إليه أمانيه . .

ولهذا أسرع أبو طلحة الأنصارى وقال :

— أنا أضيفه يا رسول الله . .

قالها فى عزم وحزم وصراحة ، ولا يدرى هل يوجد فى بيته شىء ، يكفى لهذا الرجل أم لا ؟ ولكنه على كل حال سيبذل جهده ، ويعمل

٣

ومضى أبو طلحة مع ضيفه الجائع ، يوسعان الخطا ، عليهما يصلان سريعا إلى البيت ، فإن أخشى ما يخشاه أبو طلحة أن يذهب قبل فوات الأوان . .

أجل، فهو يعلم أن زوجته من عادتها أن تطعم أولادها بمجرد أن يخيم الليل ، ويظلم الجو ، ثم تنيمهم ، وتظل بجوارهم حتى يأخذ الكرى بمعاقد أجفانهم . .

ويعلم كذلك أنه كثيراً ما نام الليالى ذوات العدد ، دون أن يتناول طعام العشاء ، وذلك لحاجة أولاده إلى هـذا الطعام ، وزوجته دائما تؤثر الأولاد على نفسها وعلى زوجها ، وهذا دائما قلب الأم ، ثم هو يشجعها على ذلك ، ولا يمانعها فيه ، فقد يضر الطفل أن تحرمه أكلة ، بينما لايؤثر هذا فى صحة الكبير ، بل من الخير أن يمتنع الكبير ، رجلا كان أو امرأة عن أكلات كثيرة ، وبخاصة فى المساء ، لأن هـذا يريح المعدة ، التى هى بيت الداء . . ! !

وكان هذا الشعور قد تملك أبا طلحة وهو سائر مع ضيفه ، فهو يريد أن يدرك زوجته لتحتفظ بما لديها من طعام ، بالغا ما بلغ الأمر ، وكائنا ما كانت الحاجة إليه . .

فى اختصار ، لأنه كان يفكر فى شىء واحد ، هو أن يصل إلى البيت فى أسرع وقت . .

وما كاد يدخل الدار ، ويجلس ضيفه فى المكان الذى اختاره له ، بحيث يجد فيه راحته ، حتى ذهب إلى زوجته وقال لها :

— هذا ضيف رسول الله صلى الله عليه وسلم فأكرميه .

— أكرمه ! بأى شىء ؟ . .

— ابذلى ما فى وسعك ، ولا تدخرى عنه شيئا . .

— والله ما عندنا إلا قوت الصبية . .

— قوت الصبية ! . . إذن فعندنا الخير كله . .

— وكيف ؟ !

— علليهم عن قوتهم ، حتى يناموا ، ولا يطعمون شيئا . .

وتخيلت الزوجة أولادها ينتظرون الأكل ، ويمضى الوقت ويمضى ، ويمتد ويمتد ، فلا يحصلون على شىء ، يشبع منهم البطون ، ويدفع عنهم غائلة الجوع ، ثم لا يكون نصيبهم غير النوم ، يجلل أبدانهم ، ويغمض عيونهم .

تخيلتهم على هذا الوضع فكاد قلبها ينشق ، وكبدها يتفتت ، وفؤادها يتصدع ، وبخاصة حينما تخيلتهم وهم ينادون عليها ، ويهتفون بها ،

يا لله ، إن هذا الشديد ، لا تحتمله قلب الأم ، ولا تطيقه بحال من الأحوال ، فكيف بالله يطاوعها قلبها على فعل ما يريد زوجها ؟

بل فعل ما يمليه الواجب ، وتدعو إليه الضرورة الملحة ؟.. إنها مسلمة مؤمنة ، فعليها أن تكرم الضيف ، وبخاصة ضيف رسول الله صلى الله عليه وسلم . .

وهنا نسيت المرأة أولادها ، ولم يعد فى فكرها غير أداء الواجب ، وترك هذه الأحاسيس والعواطف نحو أبنائها ، والتفكير فى تعليل هؤلاء الأبناء حتى يجد الضيف نصيبه من الطعام ، الذى يشعره بكرم الضيافة ! . .

٤

ومضت الزوجة تعلّل الصبية ، وتحتال للأمر ، وتظهر لهم أن الأكل لا يزال على النار ، لم ينضج بعد ، والصبية يرون القدر يفور ويفور ، ويغلى ثم يغلى ، والنار تحته ، والبخار يتصاعد منه ، والدخان يتصاعد من النار ، ثم لاشىء غير هذا . . وطال بهم الوقت ، وطال بهم الانتظار ، ولكنهم لم يفعلوا شيئا ، لأنهم يرون كل شىء ، ووالدتهم تقول لهم :

— إن الأكل لم ينضج بعد . .

وللنوم سلطان قاهر ، دونه أى سلطان ، وبخاصة عند ما يجن الليل ، ويخيم الظلام ، وسرعان ما نام الصبية ، الواحد بعد الآخر ، فى هدوء

عليهم ، و بخاصة وأن الطعام أمامهم ، يرونه و يؤمنون بوجوده ، ولا يشكون فى حديث أمهم ، ووعدها لهم . .

وأقبل أبو طلحة إلى زوجته يضع معها بقية الخطة ، عند ما علم أن الصبية قد ناموا جميعاً ، وأن الوقت قد حان ، ليقدم هذا الطعام الى الضيف فى إخلاص لله ، وابتغاء مرضاته . .

قال أبو طلحة فى صوت خفيض :

— إذا آتيت بالطعام فاسرجى المصباح . .

— سمعا وطاعة . .

— فإذا أخذ الضيف ليأكل ، قومى كأنك تصلحين السراج .

— ولم ؟

— لتطفئيه . .

— عجباً . . وهل هذا من كرم الضيافة . .

— أجل . . لنمهد للضيف السبيل ليأكل كما يحب . .

— وهل تأكل معه ؟

— نعم ، تعالى نمضغ ألسنتنا لضيف رسول الله حتى يشبع . ولا نأكل نحن شيئا . .

— الآن قد فهمت ما تعنى . .

ونفذت الزوجة المخلصة المطيعة خطة زوجها بحذافيرها ، فأثردت فيما عندها من لبن مشوب بالماء ، لتزيد الكمية قليلا ، وحملت هذا الثريد إلى حيث يجلس زوجها مع ضيف رسول الله ، وجاءت بالمصباح ، ثم قامت تتظاهر بإصلاحه ، فأطفأته ، وهنا شمل المكان ظلمة مخيفة ، لايكاد يرى الإنسان فيها كفه ، ولا يبصر مواقع قدميه . .

وتظاهر الزوج بالغضب لانطفاء المصباح ، ولكن الضيف أبدى سروره بهذا ، وأن ليد القضاء دخلا فى هذا ، وابتدأ الثلاثة يأكلون . . الضيف ، وأبو طلحة ، وزوجته . .

ووجد الضيف لذة ومتعة فى هذا الطعام ، وبخاصة وأن بطنه كان طاويا مدة من الزمن ، وما ألذّ الطعام مع الجوع ، وما ألذّ الماء على الظمأ . . ! !

كان الضيف يأكل بشهيته ، وبخاصة وأن أبا طلحة يشجعه ويأكل معه هو وزوجته ، كان يسمع صوت مضغهما جيداً ، وأنهما يأكلان فى شهية كما يأكل ، وكأنهما كانا جائعين مثله ، طاويين منذ ليال . .

يا لله ! أهكذا يتجرع المسلمون غصص الجوع والفاقة ، بينما ينعم أهل الشرك والطغيان ، بمختلف النعم ، ولا يكادون يشعرون بما يعانيه الفقير

يرضى بقضاء الله وقدره ، ويصمد للنوائب والشدائد ، إن لم يرض بهذا المسلم ، ولا يتألم له ، بل يفرح به ، لأنه من عند الله ؟ . .

وانكمشت يد الضيف ، وحمد الله وقال :

— أكل طعامكم الأبرار ، وصلت عليكم الملائكة الأخيار ، وذكركم الله فيمن عنده . .

وشاعت البسمة فى وجه أبى طلحة ، وشاعت بسمة أخرى فى وجه زوجته ، التى حملت الإناء ، وليس به شىء ، فلقد أكل الضيف جميع ما فيه ، وهو يعتقد أنهما يأكلان معه . .

ونام الضيف مسروراً ، ممتلئ البطن ، هادىء البال ، لايجد ألما ولا نصبا ، ولا يشعر بشىء يضنيه أو يثقل عليه ، فتمتع بالنوم بعد أن كان محروما منه ، وارتفع فى الجوّ له غطيط . . !!

أما أبو طلحة وزوجته ، فباتا طاويين ، يشعران بالسغب والجوع ، ويألمان ألماً بالغاً ، ولكن هذا كله يهون فى سبيل إكرام ضيف رسول الله ، وما أعظم راحة الخاطر ، وهدوء البال والضمير . . ! !

٦

وأشرقت الشمس جميلة وضاءة ، وضاحة الجبين ، تحيى هذه الطائفة المباركة من المسلمين ، الذين رفعوا لواء الإسلام ، وأعلوا رايته ، وأحقوا كلمته ،

من أهل الشرك والمشركين ، وساد بينهم الإخاء والصفاء ، والحب والوئام وجعلوا غايتهم رب العالمين . .

وحيا أبو طلحة ضيفه ، وذهب معه إلى رسول الله ، حيث يجلس مع صحابته ، تظللهم الملائكة ، وتتنزل عليهم البركات ، وتحفهم التجليات والرحمات ، فلا يكون للشيطان فى هذا المجلس منفذ ، لأنه لا يعرف الطريق إلى النور . .

وكان الصحابة رضوان الله عليهم مقبلين على رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فى أدب جم ، وإخلاص كبير ، وكلهم آذان مصغية ، لا يفوتهم حرف مما يقول ، ولا يغيب عنهم معنى من المعانى ، وإن كان دقيقاً غامضاً وكأنما نور القلوب والصدور ، يجلى الحقيقة ، ويكشف الغموض . .

وما كاد رسول الله صلى الله عليه وسلم يرى أبا طلحة ومعه الضيف حتى تبسم ، وتلألأ فى وجهه النور ، وبدت عليه علائم الانشراح والبهجة ، ودلائل الفرح والسرور . .

ورآه الصحابة على هذه الحال ، فملأت الفرحة قلوبهم ، واستبشروا ، وعلموا أنه الخير القريب ، لابد أن ينالهم منه شىء ، ويسعدوا بفضله العميم . .

وقال قائلهم فى أدب وحياء :

وكان أبو طلحة قد أقبل، ومعه الضيف، فنظر إليه الرسول الكريم، ولا تزال البسمة تتلألأ فى وجهه ثم قال :

— لَقَدْ عَجِبَ اللهُ مِنْ صَنِيعِكُمَا هَذِهِ اللَّيْلَةَ .

يعنى من صنيع أبى طلحة وزوجته . . ! !

واشتاق الناس لمعرفة ما حدث . .

ولم يكن هناك بد من إعلان الحقيقة . .

وسجل التاريخ فى صفحات خلوده هذه الصفحة الناصعة لزوج وزوجة، واستحقا أن ينزل الله فى حقهما قرآنا ، يقرع الأسماع ، ويخاطب العقول والقلوب : « وَيُؤْثِرُونَ عَلَى أَنْفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ »

وصدق الله العظيم . . ! !